■ الباب الثامن

ضاق الخناق

صوت خبط على الباب وسامي يرد وهو راقد في سريره مرتدياً بجاما من فوقها روب : « من الطارق ؟ ».

عندما اتضح أن آرشي الهندي الغربي هو الطارق دفع سامي بالمرآة المدورة ذات الوجهين تحت السرير وعليها ما تبقى من مسحوق أو بلورات الكوكايين على الأصح ، وفتحت أنا الباب .

« رد : إني أريد نقودي ! » .

البندقية عيار ٢٠ -٣٢ مليمتراً هي بندقية من طراز غريب فهي أكبر من عيار ٣٢ مليمتراً ولكنها أقل حجماً من عيار ٣٨ مليمتراً . لقد واجهت زنوجاً خطرين من قبل ولكن من يواجه آرشي الهندي الغربي يجب أن يكون على استعداد للموت . لم أصدق ما رأيت وغمرني رعب حقيقي لدرجة أنني كدت أن أفقد النطق من هول المفاجأة .

« قل لي : يا رجل ما القصة ؟ » .

رد آرشي : إنني إنما كنت أحاول خداعه عندما قلت له :أنني راهنت على رقم معين ولكنه أعطاني الثلاثمائة دولار لحين التأكد من الأرقام المدونة عنده وعندما رجع تأكد إنني لم أختر مجموعة الأرقام التي ادعيت أنني اخترتها .

« إنك مجنون ، يا آرشي ! » بدأت أتحدث بسرعة وبطرف عيني رأيت سامي يمد يده ليسحب مسدسه عيار ٤٥ من تحت الوسادة حيث كان يحتفظ به . « كيف يعقل أن رجلاً في مثل ذكائك يا آرشي ، يدفع لشخص لم يفز؟ » حرك آرشي مسدسه صوب سامي الذي تجمد في

obeikan.com

سريره وقال له : « ينبغي عليَّ أن أصوب نحو أذنيك » ثم التفت إليَّ مرة أخرى « هل معك النقود ؟ » ولابد إنني هززت رأسي بالنفي لأن آرشي رد : « سأمنحك حتى الثانية عشرة من صباح الغد. »

مد يده خلف ظهره وفتح الباب ثم سار وظهره إلى الباب ودفعه وخرج.

أصبحنا فجأة في صدام على حسب عرف الشارع . لم تكن النقود هي المشكلة فقد كانت معي مائتا دولار وإذا أردت فسيكملها سامي وحتى إذا لم تكن معه نقود فستحضرها نساؤه بسرعة . آرشي نفسه كان سيقرضني ثلاثمائة دولار لو سألته علماً بأنه جمع المئات من آلاف الدولارات التي كنت أدفعها له . إنه مرة عندما سمع بأني مفلس بحث عني وأعطاني بعض المال قائلاً : « أحشر هذا في جيبك .» المشكلة كانت الوضع الحرج الذي قادنا إليه تصرفه ذلك . « ماء الوجه » «والشرف » كانت أشياء في غاية الأهمية للزعران أمثالنا في تلك الغابة وليس هنالك فتوة يقال عنه أن فتوة آخر خدعه ويسكت عن ذلك . وإذا أشيع عن فتوة ما أنه يمكن خداعه أو تخويفه بالتهديد وأنه يفتقد الجرأة ، فهو في حكم المنتهي . كان آرشي الهندي الغربي يدرك أن صغار الفتوات أقاموا سمعتهم وأصبحوا مهابين بخداعهم أو تشطرهم على واحد من الكبار وإذاعة ذلك حتى يعرفه الجميع وظن آرشي أنني إنما أحاول ذلك . من جانبي كنت أدرك أنه سيكون قد نشر على الملأ تهديده لي ليحمي مركزه .

لقد عرفت وسمعت وأنا في هارلم عن كثير من الفتوات الذين هربوا من البلد خوفاً من تهديد ما لأنهم يدركون ذلك العرف . وبمجرد أن ينتشر الخبر يصبح التراجع من جانب أي منا غير وارد . كنت أيضاً أعرف عن أكثر من عشر مواجهات حيث يموت أحد الجانبين عند الوصول إلى المستشفى ويذهب الآخر إلى السجن بتهمة التسبب في القتل أو إلى الكرسي الكهربائي بتهمة القتل العمد .

سمح لي سامي بأن آخذ مسدسه عيار ٣٢ مليمتراً لأن أسلحتي كانت بشقتي فوضعته في جيبي ويدي عليه ثم خرجت من عند سامي . لم يكن من الحكمة أن أبتعد عن الأنظار وكان عليَّ ألا أغير من تحركاتي بل أذهب كالمعتاد إلى أماكني المألوفة . كذلك سرني أن ريجنالد كان خارج البلدة وإلا لكان حاول حمايتي وربما أصابه آرشي في الرأس الشيء الذي لم أكن أريده . وقفت على الرصيف في ركن الشارع وعقلي مشوش وتفكيري موزع مثلما يحدث مع المدمنين . هل كان آرشي الهندي الغربي يحاول تخويفي ؟ هل كان يحاول أن يسخر مني ؟ بعض كبار الزعران كانوا يحبون تخويف الصغار منهم ولكنني كنت أدرك أن آرشي لم يكن ليفعلها من أجل ثلاثمائة دولار بغير وجه حق . لكن من يدري ؟ في غابة هارلم هذه يخدع الناس أشقاءهم وكثيراً ما أنكر عملاء المراهنات حق مقامر مدمن فاز ، لأن المدمن لا يقدر على التأكد من رقمه حين تجادله .

بدأت أفكر وأسأل نفسي فلربما كان آرشي الهندي الغربي على حق ، ربما تكون اختلطت عليَّ الأرقام . أنا متأكد من الرقمين الذين لعبتهما وأعلم أنني طلبت منه أن يعمل توليفة (مجموعة توافقية) من واحد منهما . هل خلطت بينهما

وأيهما طلبت عمل توليفة منه ؟

هل حدث لك أيها القارئ أن تقوم بشيء ما ثم تنساه إلى أن يذكره أحدهم وتحاول في ذهنك أن تستعيده ثم تجد نفسك نصف متأكد ؟

حان الوقت الذي عليَّ فيه أن أذهب لأصطحب جين باركز لنذهب إلى وسط البلد للاستماع إلى بيلي في الأوينكس كلب . كانت تموج في رأسي أفكار كثيرة . فكرت في إلغاء الموعد والاتصال هاتفيا بجين للاعتذار عن الموعد بأي سبب كان إلا أنني كنت أدرك أن الهروب الآن سيكون أسوأ شيء أفعله . لذلك لم أغير برامجي وذهبت إلى مكان جين وأخذتها ثم ركبنا عربة أخرى إلى الجادة ٥٢ . قابلتنا لافتة كبيرة عليها الاسم « بيلي هوليداى » والأضواء تلمع فوق صورها المكبرة . في الداخل رصت الموائد بجانب الحوائط وكانت موائد صغيرة لا تتسع الواحدة منها إلا لكأسين وأربع أذرع فالاوينكس من الأماكن الصغيرة .

كانت بيلي قد أكملت أغنية حين رأتنا أنا وجين وكان فستانها الأبيض يلمع تحت الأضواء المركزة التي تنعكس على وجهها شبه النحاسي مثل الهنود الحمر وشعرها في شكل ذيل حصان كعهدها دائما .

الأغنية التالية التي أدتها كانت واحدة تعرف بيلي أنها أغنيتي المفضلة : « أنت لا تعرف ما هو الحب حتى تواجه الفجر بأعين ساهدة وحتى تفقد حباً تكره أن تفقده » .عندما أكملت بيلي ذلك الفاصل نزلت إلى مائدتنا وأخذت هي وجين بعضهما بالأحضان إذ لم يتقابلن منذ فترة طويلة . أحست بيلي أن شيئاً ما لم يكن على ما يرام . كانت تشعر أنني لم أكن على ما يرام فسألتني بلغتها التجديفية العادية ما الأمر . أجبتها بلغتي المبتذلة محدودة الكلمات أنني على ما يرام فلم تسأل بعد ذلك .

أخذ لنا مصور المحل صوراً تذكارية في تلك الليلة وثلاثتنا جلوس على المائدة قريبين من بعضنا البعض. تلك كانت آخر مرة رأيت فيها « سيدة اليوم» ماتت ، قتلتها المخدرات وجراح الحب ، أوقفت قلباً كبيراً وصوتاً وأسلوباً لا يقلدان . أنه لمحزن حقاً أن تلك السيدة السوداء الرائعة ذات الكبرياء لم تعش في مكان يقدر عظمة الجنس الأسود

في غرفة الرجال شممت كمية الكوكايين القليلة التي أعطانيها سامي . بعد ذلك ركبنا عربة أجرة متجهين نحو هارلم وقررنا أن نذهب إلى تناول كأس آخر . اقترحت أن نذهب إلى مكان يدعى لامار تشيري يقع في ملتقى شارع سانت نيكولاس والجادة ١٤٧ ولم تكن جين تدري أن ذلك من الأماكن التي ارتادها كثيراً . كنت أحمل مسدسي وشجاعة المخدر تملأني فوافقت . أخذت كأساً ثانياً وأصبحت مخدراً جداً فطلبت من جين أن تأخذ عربة أجرة وتذهب إلى منزلها ففعلت ذلك . تلك كانت آخر مرة رأيتها فيها .

جعلتني بلاهتي أبقى في الحانة فبقيت هنالك وبلاهتي الأكبر جعلتني أجلس وظهري إلى الباب وأنا أفكر في آرشي الهندي الغربي . منذ تلك الليلة لم أجلس وظهري إلى الباب في أي مكان ولن أفعل ذلك أبداً في المستقبل . لكن جلوسي كذلك في تلك المرة كان

من حسن الصدف لأنني لو كنت رأيت آرشي الهندي الغربي وهو يدخل لصوبت رصاصي نحوه بهدف القتل . فجأة وجدت آرشي الهندي الغربي يقف أمامي ليسبني بأعلى صوته ومسدسه فوق رأسي . لقد كان بذلك يعلن موقفه على الملأ ، يستعرض أمام الناس . ناداني بأقبح الأسماء وهددني . جميع الموجودين في المشرب وقفوا مشدوهين ، تحجروا ، وصندوق الموسيقى في الخلف يغني . لم أكن قد رأيت آرشي الهندي الغربي وهو منتش كذلك من قبل . كان واضحاً لي أنه تناول شيئاً أقوى من الوسكي مثلما يفعل كثير من المجرمين استعداداً لعملية كبرى .

كنت أفكر لنفسي : « أنني سأقتل آرشي . سأنتظر حتى يستدير ليخرج وأطلق عليه الرصاص .» كذلك بدأت أشعر بمسدسي عيار ٣٢ مليمترا تحت حزامي وداخل المعطف . ترك آرشي الهندي الغربي السباب وقال وكأنما قد قرأ أفكاري :

« أنك تفكر بقتلي أولاً ، رد . ولكنني سأعطيك شيئاً للتفكير فيه . إن عمري ستون عاما وأنا رجل عجوز ، دخلت السجن قبلا وحياتي منتهية . أما أنت فشاب صغير . أقتلني فإنك ضائع على أية حال وكل النتيجة ستكون دخولك السجن ».

خطر لي بعد ذلك أن آرشي الهندي الغربي ربما كان يحاول أن يجعلني أهرب وبذلك ينقذ ماء وجهه وحياته . ربما كان ذلك السبب في تعاطيه كمية من المخدرات . أما أنا فلم يعرف عني أنني قتلت شخصاً في السابق ولكن كل من يعرفني ، بمن فيهم أنا نفسي ، لا يشك في مقدرتي على القتل . لا أحد يدري ماذا كان سيحدث إذ كان العرف يقتضي إنه إذا خرج آرشي للشارع فإن عليَّ أن أتبعه وندخل في مبارزة بالرصاص في الشارع . لكن بعض أصدقاء آرشي الهندي الغربي تحركوا نحوه وهم ينادونه : « آرشي ... آرشي. » وتركهم يضعون أيديهم عليه وجروه جانبا . رأيتهم يحركونه بعيداً عني وهم يحدقون في بنظرات نادرة ثم جذبوه إلى الخلف .

أما أنا فقد تمهلت في الخروج . تركت مقعدي بعد مدة ورميت للساقي بورقة نقدية على الطاولة ومن غير أن أنظر إلى الوراء خرجت إلى الشارع . وقفت في الخارج من حيث أتمكن من رؤية الحانة ويدي في جيبي وانتظرت في تلك الحالة لمدة خمس دقائق تقريباً وعندما لم يظهر آرشي الهندي الغربي ، غادرت المكان .

لا بد أن الساعة كانت الخامسة صباحاً عندما أيقظت ممثلاً أبيض أعرفه يسكن في هوارد هوتيل في الشارع السادس عند الجادة ٤٥ في وسط البلد . كنت أشعر أن عليَّ أن أبقى مخدراً وقد تناولت في الساعات التالية كمية لا تصدق من المخدرات من بينها قطعة أفيون أخذتها من ذلك الممثل . ركبت عربة أجرة وذهبت إلى شقتي ودخنت تلك القطعة . في الشقة كان مسدسي جاهزاً عند سماع أي صوت حتى ولو كان صوت ناموسة تطير .

رنَّ جرس الهاتف وتناولت السماعة ووجدت أنها كانت السحاقية البيضاء وصديقتها من وسط البلد يطلبن مني أن أحضر لهن ما قيمته خمسين دولار من اللفافات . شعرت أنني طالما مونتهن في الماضي ، فعليَّ أن أمدهن الآن . وبما أن

الأفيون جعلني مشوش الفكر تناولت بعض حبوب البنزدرين التي كانت عندي لتنعشني وكانت النتيجة أن ذهني بدأ يسير في اتجاهين مختلفين في نفس الوقت . بعد ذلك خبطت على باب الشقة التي خلف شقتي وحصلت على بعض القنب من صاحبها تحت الحساب. كان واضحاً له أنني مخدر لدرجة أنه ساعدني في لفها إلى مائة عود وأثناء ذلك تناولنا بعض اللفافات . أفيون ، بنزدرين ، قنب .

في الطريق إلى وسط البلد توقفت عند شقة سامي وفتحت امرأته الزنجية الأسبانية ذات العيون البراقة الباب وكانت قد ملكت لبه في ذلك الحين . لم يكن يحتفظ بأية واحدة لمدة طويلة والآن ترد هي على الباب . في ذلك الوقت وصل سامي مرحلة الإدمان لدرجة أنه تعرف عليَّ بصعوبة . مد يده تحت السرير وهو راقد عليه وأخرج مرآة الحلاقة المدورة التي يحتفظ ببلورات الكوكايين عليها دائما وأشار إليَّ أن استنشق منها شمة أو اثنتين فلم أرفض العرض .

وأنا في الطريق لتسليم اللفافات مرت بي أحاسيس ومشاعر لا أستطيع وصفها . كل تلك الأخدوديات في نفس الوقت . أحسن وصف لذلك الشعور هو حالة « انعدام الإحساس بالزمن » فيبدو اليوم وكأنه خمس دقائق أو تبدو نصف الساعة وكأنها أسبوع . ولا أدري كيف كان مظهري يبدو عندما وصلت الفندق ولكن بمجرد أن رأتني المرأة السحاقية وصديقتها ساعدتاني للوصول إلى السرير ولم أكد أقع عليه إلا وغبت عن الوعي .

في الليل وعندما أيقظوني من النوم كان قد مضى نصف يوم على آخر موعد لإنذار آرشي الهندي الغربي . بعد ذلك بساعات ذهبت إلى هارلم ويبدو أن الخبر قد انتشر لأنني رأيت زبائني السابقين يبحثون عن مصدر آخر .

كان واضحاً ألا أحد يود أن يجد نفسه وسط الرصاص لكن شيئاً من ذلك لم يحدث ولا حتى في اليوم التالي . أما أنا فقد كنت مخدراً طوال الوقت . حاول أحد الزعران اليافعين أن يتحرش بي ولكني صفعته على وجهه فذهب وعاد يحمل مدية وكنت سأطلق عليه الرصاص لولا أن أحدهم جره وأخذوه إلى الخارج وهو يسب ويصيح بأنه كان سيقتلني .

ألهمني الإيحاء بأنني يجب أن أتخلص من مسدسي ونظرت إلى أزعر آخر يجلس مقابلا لي في المشرب ومررت إليه سلاحي تحت الطاولة وبعد ذلك بثوان دخل شرطي المشرب ويده على مؤخرة سلاحه . كان ذلك الشرطي يعرف الأخبار المنتشرة وكان متأكداً أنني أحمل سلاحاً . تقدم نحوي ببطء وكنت أدرك أنه سيطلق عليَّ الرصاص عند أقل حركة أو عطسة حتى . أمرني الشرطي قائلاً : « أخرج يدك من جيبك ، يا رد ، بكل حذر » .

فعلت ما أُمرت به وعندما رأى الشرطي أن يدي خالية من السلاح هدأت أعصاب كلينا . أومأ لي بأن أخرج أمامه فأطعته . وفي الشارع كان زميله ينتظر على الرصيف بينما عربتهم في الجانب الآخر تقف موازية لعربة أخرى وجهاز العربة اللاسلكي يعمل . كان بعض المارة يقف ، يتفرج ثم يربت على ظهري ثم يستمر في سيره .

« عم تبحثون ؟ » سألتهم عندما لم يعثروا معي على شيء .

« رد : يقولون إنك تحمل سلاحاً ناريًا .»

« كنت أحمل واحداً ولكني رميت به في النهر ».

« لو كنت مكانك يا رد ، لتركت المدينة. » ذلك ما قاله لي الشرطي الذي دخل إليَّ في الحانة .

رجعت عائداً إلى الحانة ويبدو أن قولي لهم بأني رميت بندقيتي في النهر منعهم من أخذي إلى شقتي وذلك من حسن حظي فلو كانوا ذهبوا معي إلى شقتي لوجدوا أشياء تدخلني السجن لمدة أضعاف ما تسببه عشر بنادق ولتحصل كل من الشرطيين على رتبة أعلى .

كانت المشاكل تتفاقم والخناق يضيق عليَّ ووجدت نفسي داخل مصيدة في أي اتجاه سرت . آرشي الهندي الغربي يتهددني . وإيطاليان يعتقدان أنني هددتهم والأزعر اليافع الذي لكمته والآن الشرطة . حتى تلك اللحظة ولمدة أربع سنوات قبلها كنت محظوظاً أو واعياً بما فيه الكفاية وتجنبت السجن بل حتى مجرد الاعتقال أو الوقوع في مصيبة كبيرة . لكني أدركت منذ تلك اللحظة أن شيئاً ما لابد واقع .

فعل سامي من أجلي شيئاً كثيراً ما تمنيت لو أني كنت شكرته عليه . كنت أسير في شارع سانت نيكولاس عندما سمعت نفير عربة ظننته صوت رصاص . لم أكن أتخيل أنني معني بذلك النفير .

« يا ابن بلدي !

قفزت وتذكرت خلفي وكدت أن أصوب مسدسي .

شورتي — من بوسطن ! .

أدخلت في قلبه الرعب .

« دادي — أو!»

كانت سعادتي لا تفوقها سعادة .

في داخل العربة أخبرني شورتي أن سامي اتصل به هاتفياً وأخبره أنني في حالة سيئة وحياتي مهددة وأن على شورتي أن يحضر ويأخذني . ما كان من شورتي بعد ذلك إلا أن استلف عربة رجل البيانو في فرقته ورأسا بعد أداء حفلة ما ، انطلق بالعربة إلى نيويورك قاطعاً الأميال نهباً . لم أعترض على الذهاب معه ووقف هو ينتظرني ويراقب بالخارج وأنا أجمع حاجياتي أو ما شئت أن أحمل معي وأضعه في مؤخرة العربة ثم قصدنا طريق المرور السريع . لم يكن شورتي قد نام في الست والثلاثين ساعة الماضية وقد أخبرني بعد ذلك أنني كنت ألغو طوال الطريق .